الشعوب التي دخلت الإسلام وأثرها في الحضارة

عندما خرج أوائل المسلمين من شبه الجزيرة مجاهدين في سبيل الله واخذوا يوجهون ضرباتهم الى الامبراطوريتين العظميين القائمتين في ذلك الزمان ، فتهاوت تحت ضرباتهم الامبراطورية الفارسية تماما وتلاشت واقتطعوا من الامبراطورية البيزنطية اهم اجزائها ، لم يكونوا يدركون المدى الذي سوف تمتد اليه فتوحاتهم ولا كانت معلوماتهم عن الشعوب التي تعيش على الارض المفتوحة دقيقة ولا مفصلة ، ولكنهم خرجوا للفتح تدفعهم عوامل دينية ونفسية هدفها الاول حمل مشعل الهداية المحمدية ·

ولم تكن هذه الدوافع في نفس الوقت لتؤثر على قدرتهم في التجاوب مع البيئات الجديدة التي دخلوا فيها فلقد كان في القرآن والسنة من الآيات والاحاديث مايحفز المسلمين على طلب العلم أيا كان مصدره وعلى التأمل والدراسة لكل مايقع تحت أيديهم ·

ومن ناحية ثانية فان البيئات التي فتحوها لم يكن لها من القوة مايمكنها أن تشكل خطرا مباشرا على عقيدة الفاتحين ولا طبيعتهم ·

وعلى ذلك فان التفاعل بين المسلمين وغير المسلمين وبين العرب والشعوب الاخرى ـ التي يسميها العرب عادة بالعجم ـ استمر في حركة دائبة دو ن توقف ·

ولقد ظهرت احتياجات جديدة نتيجة لهذا التفاعل هي التي كشفت عن العوامل الدفينة الكامنة في تلك البيئات وادت الى ظهور مصادر جديدة لما عرف فيما بعد باسم الحضارة الاسلامية ·

ولقد كان استقرار الفتح الاسلامي في المنطقة الجغرافية الشاسعة الممتدة من اسبانيا غربا حتى الصين شرقا فترة من فترات التاريخ التي يفقد فيها الفرد صلته بأسلافه وماضيه وعقائده الموروثة ليحدث في نفسه التفاعل المستمر بين الدوافع الذاتية وبين الظروف الموضوعية الجديدة القائمة في المجتمع ·

ومن ناحية ثانية فانه من المؤكد أن العرب تأثروا في الغالب الاعم بحضارة البلاد التي فتحوها ولكن الحضارة المتميزة بخصائصها الذاتية والتي عرفت فيما بعد باسم حضارة الاسلام لم يتم تكوينها الا من التقاء تيارات ثقافية متعددة التقت فيما بينها على مر الزمن نتيجة عملية بطيئة للتفاعل بين المفاهيم الاسلامية وبين الثقافات التي كانت منتشرة بين أهل البلاد المفتوحة والتي لم تظهر آثارها الا في أوائل القرن الثاني الهجري ، والمطلع على التاريخ الاسلامي سوف يرى كيف ان تأثير تلك الثقافات ظهر في اشكال متعددة خصوصا في العقائد التي ظهرت فيما بعد والتي بعدت بعدا كبيرا عن حقيقة الدين الاسلامي وأدت الى أن يقف منها جمهور المسلمين موقف العداء والمقاومة ولكن تلك العقائد رغم كل المقاومة التي لقيتها لم تنطفيء جذوتها تماما أبدا وبقيت قرون طويلة مصدر قلق واضطراب لدى جمهور المسلمين ·

فلقد وجد الفاتحون العرب أنفسهم في الامبراطوريات التي فتحوها وسط شعوب تختلف عنهم اختلافا كبيرا في اللغة والجنس والعادات والدين ، وكان العرب يقيمون شبه منعزلين في معسكراتهم العربية سواء في المدن التي أنشأوها بعد الفتح وعرفت باسم الامصار أو في مناطق التجمع الحربي المعروفة باسم الاجناد أو في الثغور والرباط وهي الاماكن المحصنة التي اقاموها اما على الساحل أو على الحدود لمراقبة تحركات العدو ·

ولو حاولنا احصاء تلك الشعوب التي خضعت لسلطان المسلمين في الاراضي المفتوحة لوجدنا أن هؤلاء عندما خرجوا ناحية الشرق أخضعوا اولا الشعب الفارسي ثم فتحوا بلاد ماوراء النهر وأخضعوا الشعوب التي كانت تعيش هناك لسلطانهم ووصلوا الى الحدود المتاخمة لبلاد الترك واقتربوا من الصين ·

ثم امتدت فتوحاتهم الى بلاد السند وكان يسكنها عناصر آرية تشبه سكان ايران تميزت بلون أسود خاص مما جعل العرب يعدونهم من جملة السودان ، وسكنتها ايضا أصناف من قبائل مجهولة مثل الزط والسيابجة حيث كانت الاولى من الرعاة الذين تتبعون الكلأ ، وكذلك وجدوا عناصر

تركية كثيرة في بلاد اسمها (قيقان) تلي خراسان من الشرق وتعتبر من بلاد السند .

ولقد كان محمد بن القاسم الثقفي فاتح بلاد الهند مثالا للفاتحين المسلمين فقد أوغل في شمال السند الى مدينتي (بيلمان) و (قندهار) حتى وصل الى اقصى حدود كشمير وقصارى القول أن فتوحات المسلمين خلال حكم الخلفاء الراشدين وبني أمية امتدت شرقا حتى شملت الشعوب التي عددناها واتجهت غربا ففتحت مصر وخضع اقباط مصر لحكم المسلمين بعد هزيمة الجيش البيزنطي وسار المسلمون نحو الغرب حتى خضعت لهم افريقيا ودخلت شعوبها تحت سلطانهم ومنهم البربر ثم بعض شعوب أوروبا في الاندلس وصقلية وكذلك امتدت الفتوحات شمالا حتى وصلت الى أبواب قسطنطينية وخضع النصارى الذين كانوا في تلك البلاد لحكم المسلمين .

وغزت الدعوة الاسلامية شعوبا أخرى في افريقيا السوداء تارة بالفتح وتارة عن طريق التجارة فدخل في جملتها شعوب من أفريقيا يمكن أن تعتبرها جميعا من جنس واحد لتقارب خصائصها الانتروبولوجية .

وكذلك امتدت الدعوة الاسلامية الى جزر الهند الشرقية ، فدخل في نطاقها شعوب تلك المنطقة وبقي شعب ضخم دخل في الاسلام عن طريق الغزوات التي قام بها في وقت متأخر لبلاد الاسلام ذاتها ذلك هو الشعب المغولي الذي دخل فاتحا وأحدث في بلاد الاسلام من الدمار ما وصفه المؤرخون وانتهى الامر بدخوله في الاسلام .

وسوف نقتصر في هذا البحث الموجز على ذكر التأثيرات التي احدثتها أجناس الفرس ومسيحيو الشرق وشعوب الهند والاتراك في الحضارة دون ان نتعرض لباقي الشعوب اذ لايمكن لنا ان يتسع المجال في مثل هذا البحث لذلك .

ونستطيع ان نقسم التأثيرات التي حدثت نتيجة دخول الشعوب التي اشرنا اليها تحت سيطرة الاسلام الى قسمين لنيسيين هما :

التأثيرات الادارية والسياسية

والتأثيرات الثقافية والفكرية

ففي أعقاب الفتح مباشرة وجد العرب المسلمون أنهم أمام نظم ادارية قائمة ومستمرة تنظم قواعد جباية الضرائب والزراعة والري الى غير ذلك من أمور الحياة فلم يحاولوا أن يدخلوا على هذه النظم تعديلات كبيرة ذلك لأن العرب لم تكن لهم نظم ادارية خاصة بهم قبل الفتح فرأى عمر بن الخطاب الابقاء على الدواوين في البلاد المفتوحة على حالها وأن تظل تكتب بلغة اهلها . فكان ديوان الشام باليونانية وديوان العراق وفارس بالفارسية وديوان مصر بالقبطية . بل كان أول رد فعل عندهم عندما حملت اليه الاموال من فارس بعد فتحها أن دون ديوانا على غرار الديوان الفارسي نفسه .

مصباح مسجد من الفخار عثر عليه في قبة الصخرة في القدس وتاريخ صنعه ١٥٤٩ م ، وهو قريب الشبه الى الطابع التركي الذي ظهر في سوريا بعد الفتح العثماني لها في أوائل القرن السادس عشر

وكذلك أبقى عمر العملات المتداولة على ماهي عليه سواء أكانت دراهم فارسية أم دنانير بيزنطية على الرغم مما تحمله من صور معبد النار وهرقل ولم يتعرض عمر للتقسيم الاداري في البلاد المفتوحة أيضا فبقيت « الكورة » هي الوحدة الادارية في مصر وبقي « الرستاق » في فارس .

وسيظل الحال على ماهو عليه حتى عهد عبد الملك بن مروان عندما يبدأ حركة الاصلاح الشاملة بتعريب الدواوين وبحركة اصلاح العملة عن طريق ضرب الدنانير الاسلامية .

ولقد كان العرب المسلمون في أوائل الفتح يؤلفون طبقة المحاربين ويقيمون في الاماكن التي ذكرناها آنفا وكان أهل البلاد المفتوحة بمثابة الرعية . ولم يكن العرب يتدخلون كثيرا في الشئون الداخلية لاهل تلك البلاد فبقي الاساقفة هم الذين يتولون شئون الرعية في البلدان التي كانت مسيحية أما في فارس فقد احتفظ الدهاقنة أو رؤساء الاقاليم بمكانتهم العليا .

ولكن سرعان ماظهرت في البلاد المفتوحة المشكلة الاجتماعية التي عرفت فيما بعد باسم مشكلة الموالي ، ذلك أن من أسلموا حديثا من أهل تلك البلاد كانوا يعتبرون بالرغم من اسلامهم أقل شأنا من العرب الفاتحين يضاف الى ذلك أنهم كانوا لايزالون يتكلمون بلغاتهم أو يتحدثون العربية بلهجة أجنبية ولايتقنون قواعد النحو التي

- قارورة للماء تحتوي على خليط غير عادي من النقوش بعضها مسيحي يضم دخول بيت المقدس والميلاد ، ولكن أسلوبها الفني وزخارفها اسلامية بحتة ، وتعتبر هذه القارورة من أصدق النماذج لاثر ادماج غير المسلمين في الحضارة الاسلامية .

كان يتقنها العربي بالسليقة ومن ثم فقد فشا اللحن في اللغة وقراءة القرآن وهذا مادفع علماء اللغة العربية الى وضع قواعد النحو وقواعد ضبط قراءة القرآن ·

على أن أهم مايرتبط بمشكلة الموالي مشكلة أخرى عرفت باسم (الشعوبية) وهي قضية ظهرت بين هؤلاء في أواخر عهد الدولة العربية وكانت حركة تطالب بحقوق الشعوب التي أسلمت في المساواة ·

نسيج حريري من القرن السادس عشر وعليه نقوش لها الطابع الرسمي حينذاك

وبدات كلامية في أول الامر تعتمد في تأييد حقها على ايات من القرآن وعدد من أحاديث الرسول وظهرت بأقصى قوتها بين الفرس حيث أن كلمة شعوب بلفظ الجمع أصبحت تعني القبائل غير العربية أي الاعاجم وهذا هو الاسم الذي سماهم به العرب كما سموهم (العلوج) وأطلقوا هذا الاسم على الفرس خاصة ·

ولقد اعتنق الفرس منذ وقت مبكر المبادىء التي كانت تناوىء الامويين تلك المبادىء التي كانت تدعو الى ولاية آل البيت ، ولعب الفرس بذلك أهم دور سياسي في تاريخ الشعوب الاسلامية مما أدى الى اسقاط دولة بني أمية العربية وقيام دولة بني العباس التي وصفت بأنها دولة الاعاجم ·

أضف الى ذلك أن الفرس بعد أن دانوا بالاسلام مدة طويلة بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصلي وينزع فيها عرق المجوسية وسوف تظهر تلك النزعات بصورة أو بأخرى خلال حكم الدولة العباسية قبل حركة الزنادقة والثورة التي قام بها بابك الخرمي ·

أما الاتراك فقد لعبوا دورهم السياسي الذي هو أشهر من أن نعيد ذكره والذي أدى الى سيطرتهم على مقدرات الدولة العباسية منذ عهد المتوكل ولكنهم الى جانب سيطرتهم السياسية قاموا بالادوار العربية التي دافعوا فيها عن الاراضي الاسلامية ·

وأهم مايعنينا في هذا البحث هو التأثيرات الثقافية التي التقى بها الاسلام في البلاد المفتوحة ويحق لنا أن نتساءل عن الاغراء العقلي الذي صادفه المسلمون الاوائل وهم يطلون على مصادر جديدة للفكر كانت مراكزها في سوريا ومصر وفلسطين وبلاد فارس والهند ، فقيما بين القرن السابع والقرن التاسع الميلادي بلغت الثقافة الاسلامية أوجها في البلاد المفتوحة ولن نحاول هنا أن نعطي كل الاصول التي أثرت في مجرى تلك الثقافة او أن نعطي ثبتا بالاسماء والاعمال فانها من الكثرة والتفرع بحيث لايمكننا اثباتها هنا جميعا ·

وانما سوف نحاول أن نعطي بعض المعالم الرئيسية لتلك الثقافة ، وسوف نقسمها الى مراحل الاولى عهد المدينة وحكم بني أمية حين شهد العالم الاسلامي وضع قواعد الثقافة الاسلامية

بالامتزاج بين الثقافتين العربية واليونانية ، ثم عهد بغداد حيث دخلت الثقافة الفارسية الى كل نواحي الحياة ثم دخول علوم اليونان في القرن الثالث الهجري ويمكن لنا أن نعتبر عهد الخليفة المأمون هو قمة امتزاج تلك الثقافات وحيث اختلطت في عهده أفكار أهل السنة والشيعة ٠

ولكن رد الفعل عند المتوكل جعله يحاول أن يوجه الدولة العباسية وخاصة العراق الى وجهة نظر أهل السنة ، ولم تتم العودة الى افكار أهل السنة دفعة واحدة فقد استمر الفكر الاسلامي تحت حكم البويهيين يتلقى بعض الافكار الشيعية سواء مباشرة أو عن طريق الفلسفة اليونانية ولقد ظلت سابور عاصمة السامانيين وهمدان وأصفهان مراكز حية للثقافة وقد تلا دولة الاغالبة في صقلية ظهور التأثيرات الفاطمية في القاهرة من طريق جامعة الازهر أما في أقصى الغرب فان الخلافة الاموية السنية كانت تنافس خلافة العباسيين في بغداد ولقد جعل الخليفة عبد الرحمن الثالث ومن بعده المنصور بن أبي عامر قرطبة مركزا لتشجيع الفنون والعلوم ٠

ولقد كان دخول علوم اليونان الى الثقافة العربية حدثا فريدا في تاريخ الشعوب الاسلامية فان استعداد العرب لتلقي الثقافات الاخرى وهضمها تجلى في هذه الحركة بأوسع معانيه ٠ وحتى قبل أن تترجم علوم اليونان الى اللغة العربية كانت قد ترجمت بعض منها الى السريانية لأن الفلسفة اليونانية قبل ظهور الاسلام كانت قد انتقلت الى سوريا وجاءت الافلاطونية الحديثة التي ألفها أفلوطين وامتزجت بعناصر فلسفة أرسطو عن طريق فورفوريوس وكذلك وجدت مدرسة على غرار مدرسة الاسكندرية في أنطاكية ونصيبين عن طريق الجماعات التي تتكلم السريانية ثم انتقلت الى الرها وعادت مرة أخرى الى نصيبين ٠

وقبيل ذلك كان قد نشب حوار بين الكنيسة الارثوذكسية التي تحتضنها مدرسة الاسكندرية والتي كانت تعتقد أن للمسيح طبيعة واحدة وبين النصارى الكاثوليك الذين كانت لهم الغلبة في العراق وفارس والذين كانوا يلتفون حول مدرسة أنطاكية ورأسهم مطران القسطنطينية ٠

ابريق يغلب اللون الازرق على نقوشه ، وكان تقليد المزخرف واضحا لاستخدام الصينيين للون الازرق على الارضية البيضاء ، وكذلك شكل الابريق من حيث تكوينه العام

وظلت هذه الفرق المسيحية تتجادل فيما بينها قبل الفتح الاسلامي ، ونستطيع أن نقرر أن الحقبة مابين ظهور الفرق المسيحية وبين فتح المسلمين لسوريا كانت غنية بالترجمة من اليونانية الى السريانية وغنية كذلك بالشروح ومرجع ذلك أن الفرق المسيحية كانت تتلمس في الفلسفة اليونانية عونا لها في شرح وتأييد معتقداتها ٠

غلاية من البرونز من داغستان تعود للقرن الثاني عشر الميلادي ورسومها من النسور والخيول تدل على تاثر العصر بعدة حضارات مختلفة ·

جرة مزخرفة بلون اصفر لامع على زجاج غير شفاف · ومن المحتمل ان تكون صناعتها قد تمت بالفسطاط شانها شان اغلب القطع المصرية من السراميك ·

وفي منتصف القرن السادس الميلادي تأسست مدرسة مسيحية في المدائن على غرار مدرسة نصيبين وبعد قليل أسس أنو شروان ملك الفرس مدرسة مجوسية في جنديشابور وتمتاز تلك المؤسسة الاخيرة بأنها لم تقصر عنايتها على الدراسات اليونانية والسريانية بل اتجهت أيضا الى فلسفة الهند وعلومها فترجم قدر كبير منها الى اللغة البهلوية ·

والى جانب ذلك كان هناك مدرسة حران التي أنشأت في عهد الاسكندر واستمرت مدة طويلة مركز للدراسات اليونانية الوثنية والدراسات الافلاطونية الجديدة كما كان يدرسها فورفوريوس · وكانت هذه المدرسة آخر المعاقل التي احتمت بها علوم اليونان ·

وعلى ذلك فانه مع دخول الاسلام الى البلاد والآنفة الذكر فقد نشطت حركة ترجمة الفكر اليوناني اما من السريانية أو من اليونانية مباشرة ونشأ في بغداد جماعات من المترجمين كانوا مسيحيين اولا ثم صاروا مسلمين منهم حنين بن اسحق وابنه اسحق وابن أخيه حبيش وكان هناك أيضا قسطا بن لوقا وبعده بقليل ابو بشر متى بن يونس وغيرهم ولقد كان تاثير الفلسفة اليونانية واضحا في نشأة علم الكلام · أما الفلسفة فقد كتب معظمها باللغة العربية وان كان هناك قدر كبير من أعمال ابن سينا كتبت باللغة الفارسية ·

هذه هي بعض التاثيرات التي ظهرت من أثر اتصال العرب المسلمين بشعوب اخرى وثقافات وجدوها في البلاد المفتوحة اقتصرنا على ذكر هذه النماذج في هذا البحث الموجز ·